جماعة العلم الصحيح وحُماة الدين القويم يزيدها من واسع علمه نصحًا ان غوى والى دركات الضلال هَوَى والله الموفق الى قصد السبيل

الطاعون الدُّمَلي

مقالة للاب لويس بولوموا مدرّس العلوم البكتريولوجيّة في مكتبنا الطبيّ

١ تاريخ الطاعون

ما من آفة نال أذاها البشر في كرور الاجيال ونشرت في العالم المَوتان والاهوال كداء الطاعون العضال الذي ابقى في مخيّلة الشعوب اثرًا مشؤومًا ترتجف الفرائص لذكر شَراهُ الجحاف وسهمه القتّال

ولكن قد وهم البعض اذ نسبوا الى الطاعون الاسود او الدُّمَلي أوبئةً أخرى اسهب قدماء المؤرّخين في تعريف خواصها المَرَضيّة. وذلك انّهُ شُبه عليهم اسم الطاعون الذي وجدوهُ في اوصاف اولئك المؤلفين فتلقّوا انّ المراد هو الطاعون الاسود. والصواب انّ لفظة الطاعون في العربيّة كلفظة (Peste) عند الاوربيين ربّما أُطلقت على كلّ عدوى تنتشر في بعض البلاد وتجحف بقسم من سكّانها وذلك امرٌ اشار اليه جالينوس الطبيب الشهير. ولكن اذا حصرنا الكلام على الطاعون الاسود وجدنا انّ ما يُميّز به هذا الداء عمّا سواهُ الغُدد او النقّاطات التي تظهر في جسم المصابين على جلدهم. فاذا لم تبدُ هذه الخُراجات فليس الداء بطاعون وانّما هو وباء شبيه به من حيث مفاعيله الوخيمة. وعليه فانّنا لا نعدُّ كطاعون ثلاث آفات احتلّ بلاؤها في القرون الغابرة على بعض الاصقاع ودعاها المؤرخون طاعونًا غير انهم سكتوا في تشخيصها عن ذكر البثور الخاصّة بالطاعون الاسود. وكان ظهور الوباء الاوّل في بلاد اليونان سنة ٤٣٠ قبل المسيح في خلال الحرب البيلوبونيسيّة ولم يلبث ان عمّ شرُّها البلاد المجاورة من آسية الصغرى والجزائر البحريّة. وقد تضاربت آراء المحدثين في بيان امر هذا الداء الذي وصفهُ توقيديد المؤرخ أهو الحمّى الصفراء او التيفوس او الجدري او غير ذلك ممّا لا يهمّنا الآن الخوض في البحث عنهُ. امّا العدوى الثانية فانّها اصابت الجيوش الرومانيّة سنة ١٦٦ م على عهد مرقس اوريليوس وقت سيرها لمحاربة البرتيين تحت قيادة

لوقيوس ڤارُس . ونقلتها الجنود الى رومة فانتشرت من ثمَّ في جميع انحاء ايطالية . وقد شاهد جاليئوس هذا الداء وشخَّصهُ في تآليفهِ وهو اشبه بالداء السابق المذكور في تاريخ توقيديد . وظهر الوباء الثالث في مصر سنة ٢٥٥ م فتك بسكَّانها فتكًا ذريعًا ثمَّ تعدَّى الى سواحل افريقية والى اليونان وايطالية ولم ينتهِ الَّا بعد عشر سنوات فاتلف من الارواح ما لا يحصيه الَّا الله . واوصافهُ مسطَّرة في تآليف القديس قبريانس الشهيد اسقف قرطاجنَّة وهي توافق ما ذُكر عن الجائحتين السابقتين

على انَّنا لا ننكر معرفة القدماء بالطاعون الاسود ذي الشرى والنُّدَد السود . فانَّ الكردينال ماي اكتشف كتابًا خطيًّا مسطَّرًا على رقّ غزالٍ كان رُقِّم عليهِ كتابة سابقة محتها النسَّاخ لخطّ تأليفٍ جديد . فاستعاد الكردينال بواد كيمائيَّة الخطّ الاوَّل فوجد فيهِ تأليفًا لاورباز (المتوفَّى في اوائل القرن الخامس بعد المسيح) ورد فيهِ ذكر الطاعون الدُّمَّلي كما وصفهُ الاطبَّاء في ايَّامنا ببلاد الهند . وهذا تعريب قول اورباز :

« انَّ النَّفَّاطات الطاعونيَّة كلَّها قتَّالة وتنشو بنوع غريب لاسيما في بلاد ليبية ومصر وسوريَّة »

فهذه الالفاظ الوجيزة لا يُمكن اطلاقها الَّا على الطاعون الاسود اذ وصفهُ المؤلف بخواصهِ المفرزة لهُ عمَّا سواهُ . والدليل على ذلك انَّهُ بعد تولهِ السابق يحوِّل القرَّاء الى مطالعة مقالات ديونيسيوس الاحدب وديوسقوريدس وبيدونيوس وفيها اوصاف الطاعون الاسود الفاشي في السنة ٣٠٠ ق . م بنواحي ليبية . ومن تشخيصهم للمرض انَّهُ « يصيب المطعون حمَّى شديدة مع اوجاع وانزعاج في كلّ البدن وهذيان ودوار ويروز نفَّاطات متَّسعة الدائرة فيها جسوء دون ان يخرج منها صديد وهي تبرز في البدن كلِّهِ »

ومع هذه الاوصاف المدقَّقة كانت الدلائل التاريخيَّة لبيان فشوّ الطاعون الاسود قليلة جدًّا قبل السنة ٥٤٢ ميلاديَّة . ولمَّا دخلت السنة المذكورة على عهد الملك يُستنيان ظهر هذا الداء في مدينة پلوزة من اعمال مصر السُّفلى وسرت العدوى الى سواحل بحر الروم ثمَّ انتهت الى تخوم فارس . ومن وصف الوباء المؤرخ إڤاغريوس الشهير قال : « لا السنّ ولا بنية الجسم ولا اصناف الاحترازات اجدت نفعًا بازاء هذه العدوى . فمن المصابين من كان يعتريهم على بغتةٍ حمَّى خفيفة دون ان

يطرأ على هيئتهم تغيير كبير وربّما كانوا لا يبالون بهذه الظواهر فيحسبها الاطبّاء كتعب عَرَضي ليس الّا. على انّهُ كان يُعقب هذه اللوائح نفاطات ودمامل تحت الآباط . . . وكان المرض اذا اشتدّت وطأتهُ على المصابين ألحق بهم سُباتًا ثقيلًا محا من ذاكرتهم كل الامور او كحلَ عيونهم بالسُهاد وبلبل افكارهم وكنت ترى بعضهم يضطربون كأنّ بهم جنونًا ويفرُّون هاربين من اشباح تتخيَّل لهم بصور هائلة. وكان اغلب هؤلاء المنكوبين يذهبون فريسة الداء . . . وكانت الدمامل في بعضهم محدَّدة الرؤوس فاذا تفجَّرت وخرجت منها الخُراجات نجا اصحابُها. ومن البثور صَنف اسوأ من غيره عُقبى كان يظهر على الجسم بشكل بُقع محمرَّة يبرز فوقها دُبولٌ سود على كبر عدسة. فكان الذين يُصابون بهذه الدمامل يسقطون صرعى على الحضيض ويتقيّأون دمًا ويموتون فجأةً »

تلك هي التفاصيل الواردة في كتب المؤرخين عن هذا الوباء وهي لا محالة نفس العلامات التي لحَظها الاطبّاء في العدوى المنتشرة في ايامنا في الهند والصين

ومذ ذاك العهد تكرَّرت هجمات الطاعون في بلاد شتّى من آسية واوربّة. وقيل انّ اوّل طاعون ظهر في الاسلام كان بعد فتح المدائن بعد الهجرة بقليل وعقبهُ في أيام عمر ابن الخطّاب سنة ١٨ (٦٤٠ م) طاعون عمواس وهي بلدة على ستّة اميال من الرملة على طريق القدس فشا منها الى ارض الشام. قال ياقوت الحموي وغيرهُ انّهُ مات فيه خمسة وعشرون الفًا من المسلمين. وقد عدَّد الكُنت فون كريمير خمسين طاعونًا (١ في القرون الثلاثة الاولى للاسلام

ومن الطواعين التي وجفت لها القلوب هلعًا طاعون القرن الرابع عشر المعروف بالطاعون الاسود او الموت الاسود وكانت نشأتهُ في الصين سنة ١٣٣٤ فلم يزل يمتدّ تدريجًا من صَقع الى آخر حتى تجاوز الهند وفارس وتخوم الروس فضرب اطنابهُ في بلاد اللاه والمانية ثمّ فرنسة وايطالية وانكلترَّة ونزوج ولم يتقلّص ظلّهُ الّا في سنة ١٣٥١ بعد ان اجتاح ٢٥,٠٠٠,٠٠٠ من اهل اوربّة اعني ربع سكّانها وكان مجموع قطّان قارة اوربّة آنئذٍ ١٠٥,٠٠٠,٠٠٠. ويؤخذ من رسالة البابا كليمنس السادس ان عدد الوفيات في المعمور بلغ اذ ذاك ٤٣,٠٠٠,٠٠٠ وهي لعمري جائحة تطنّ لها الآذان الى يومنا هذا. وكان من سماتها ان ينتشر على جلد اصحاب هذا الداء شرًى وغُدد

(١ راجع A. V. Kremer : *Cullurgeschichte des Orients* I, 490

ويتقيَّؤون الدم ويتفلون موادَّ صديديَّة. الَّا انَّ هـذه الاعراض ليست بادية في كلّ الاربئة لاختلاف اجناسها فانَّ الوباء الحيني مثلًا يغلب فيهِ على المطعونين عراقيـل الرئة والتبقُّعات الحمراء والدمامل

وعاد الطاعون بعد ذلك فاحتلَّ مرارًا في اوربَّة كضيف مشؤوم على انَّ وطأتهُ كانت اخفّ من العدوى السابق ذكرها اللَّهم الَّا في السنوات ١٥٧٥ — ١٥٧٨ اذ فشا في كثير من مدن ايطالية. ثمَّ كرَّ راجعًا في القرن السابع عشر فألحق في انحاء اوربَّة اضرارًا لا تُحصى. الَّا انَّهُ بعد ذلك اشفق على شمالي اوربَّة وزحف بجيشهِ ورجلهِ على الجنوب فلم يُبقِ ولم يذر. فمن ذلك وباء سنـة ١٧٢٠ نقلهُ الى سواحل فرنسة مركبٌ تجاري أبحر من مدينة صيداء ميتًا مرسيلية وكان شحنهُ حريرًا فبلي نوتيَّان بداء الطاعون وماتا دون ان يُشعر الركَّاب بسبب موتهما. فسرت العدوى من السفينة الى مدينـة مرسيلية ثم الى جنوبي فرنسة وقتلت اهلها ابرح قتل. وهو الوباء الذي اشتهر فيهِ ذلك الشهم المقدام والبطل الهمام السيِّد دي بلزُنس اسقف مرسيليـة فانَّهُ ضحَّى نفسهُ عن شعبهِ على مثال الراعي الصالح ولم يزل ليلًا مع نهار يتولَّى بنفسهِ شؤون المصابين حتى انهض الهمم وقوَّى العزائم واجتذب بمثلهِ مئاتٍ من الكهنة والرهبان لتمريض المطعونين واسعافهم بكل ما امكن من الوسائل ولم ينقطع عن اعمالهِ المبرورة حتى نال بحلواتهِ من الله ان يكفَّ ذراع غضبهِ عن رعيَّتهِ. قيل انَّهُ مات منها نحو اربعين الفًا في مرسيلية وحدها. ولا يزال الى يومنا تمثالهُ في اكبر ساحات المدينة اقامهُ لهُ الاهلون كذكر مخلَّد وشكر مؤبَّد

ولم يعد الطاعون الى فرنسة منذ ذاك الحين غير ان صقلية ابتُليت بهِ في سنة ١٧٤٣ اتاها من احدى السفن القادمة من بلاد اليونان الى مسينة فاتلف باقلّ من ثلاثة اشهر ٤٣٠٠٠ نفس ثم خمدت بعد ذلك سَورة العدوى في اوربَّة جمعاء.

اما البلاد الشرقيَّة فانَّ كثيرًا منها تكنُّ في صدرها جراثيم الطاعون لاسيما مصر التي تُعدّ كاحدى مصـادر الوباء. فانَّ عدد الطواعين في مصر بلغ من سنة ١٧٨٣ الى سنة ١٨٤٤ نيفًا وعشرين طاعونًا دام منها كثيرٌ مدَّةً تربي على سنتين. وفي زحفة نابوليون على مصر مات من جيشهِ فوق النِّصف جندي بالطاعون

وتراوى الداء من مصر منذ سنة ١٨٤٤ بيد انَّهُ في هذه الاسابيع الاخيرة لم تلهج

الالسن سوى بذكر الاصابات الواقعة في الاسكندريّة . ونسأل الله الّا يبتلي عباده بهذا الداء العقام

امّا بلاد الشام وآسية الصغرى فان الطاعون وفد عليهما مرارًا في القرون الماضية وقد دفع الله عنهما اذاهُ منذ سنة ١٨٣٩ . وكذا انقطع الوباء عن بلاد المغرب والجزائر مع فشوهِ مرّتين في طرابلس الغرب

ومن البلاد التي امتحنها الله قريبًا بالطاعون بلاد العسير في جنوبي جزيرة العرب وفد عليها الوباء في السنين ١٨٥٣ , ١٨٧١ , ١٨٧٩ , ١٨٨٩ وكذا يُعدّ العراق العربي وشرقي ما بين النهرين كنواحٍ موبوءة توالت عليها فتكات الطاعون . وقد شنّ الغارة مرارًا على بغداد مدينة السلام

قال المسيو تولوزان ان مركز الطاعون الاصلي في القسم الاعلى من حوض الفرات يدخل في حيزهِ بلاد العجم كما اثبتت ذلك اللجنة العثمانيّة . والاقليم المصاب بهذه البليّة العظمى اكثر ممّا سواهُ اقليم اذربيجان جرف الطاعون اهلهُ في السنين ١٨٦٣ و ١٨٧٠ ١٨٧٢ و ١٨٧٨ و ١٨٨٥ ثمّ يتلوهُ خراسان ثم كردستان

ومن اقاليم الصين الموبوءة عادةً اقليم اليونّام ومركز الوباء في ياخوي احدى عواصمه . ومنها صدر طاعون سنة ١٨٩٢ ودخل كانتون فقتل من سكانها ١٨٠,٠٠٠ نفس وسار من ثمّ الى شمالي غربي الهند فاتخلت لظهورهِ القلوب وهو لا يزال منذ ثلاث سنين ينشر في بمباي لواء المرتان

هذه نبذة موجزة تنبئنا بتاريخ الطاعون واعمالهِ الغير المشكورة وهي تبشرنا بالويل والثبور اذا ما تغاضينا عن سدّ باب اقطارنا في وجههِ واذا لم نتّخذ الوسائل الفعّالة في قطع دابرهِ وهو العدوّ المشؤوم الذي يعمل في الامصار عمل السيف البتّار فلا يُرعوي الّا بعد اخلاء الديار وتعمير القبور بنفوس الاحباب والذراري

وفي مقالة ثانية سنستوفي الكلام ان شاء الله عن تعريف الطاعون وخواصهِ وكيفيّة سريانهِ والوسائل التي تعرف حتى الان لدفع بلائهِ (ستأتي البقيّة)

شهيد العلم

بقلم محمّد ابي عزّ الدين كاتب ضبط دائرة الحقوق الاستئنافية في جبل لبنان

عثرت في احدى المجلّات الاجنبيّة على طرفة من سيرة المقدام الطيب الأثر الدكتور